عملية طوفان الأقصى:
منعطف في تاريخ المقاومة الفلسطينية وتداعياتها

محمد حسين مرجان*

*جامعة مرمرة، تركيا.

ملخص: ترى هذه الورقة أن عملية طوفان الأقصى التي شنتها كتائب عز الدين القسام، الجناح العسكري لحركة حماس، صباح 7 أكتوبر 2023م، أدّت إلى تمزّق نفسي ومعرفي في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي وسياسات الشرق الأوسط، وشكلت نقلة نوعية في فلسفة المقاومة، وأن تسلّل صواريخ القسام إلى الأراضي المحتلة برًّا وبحرًا وجوًّا كان إشارة واضحة إلى تغير في إستراتيجية المقاومة لمواصلة النضال النشط ضد الاحتلال والتوسع العدواني للحكومة الإسرائيلية الصهيونية. وفي هذا السياق تحاول الدراسة تأطير عملية طوفان الأقصى، وتحليل أبعاد الانكسارات التي أدت إليها. و تتناول الدراسة كذلك التأثير المحتمل للعملية في السياسة العالمية والإقليمية، وأن العملية الجارية ستغيّر التوازن السياسي في الشرق الأوسط

الكلمات المفتاحية: طوفان الأقصى، غزة، حماس، الصراع الفلسطيني الإسرائيلي.

Al-Aqsa Flood Operation: A Turning Point in the History of the Palestinian Resistance and its Repercussions

MUHAMMED HÜSEYIN MERCAN*

ORCID NO :0000-0003-4699-0700

*Marmara University, Türkiye.

ABSTRACT: *This paper argues that the al-Aqsa Flood operation launched by the Izz ad-Din al-Qassam Brigades –the military wing of Hamas– on the morning of October 7 has led to a psychological and epistemological rupture in the Palestinian-Israeli conflict and Middle East politics as the operation marked a paradigm shift in the philosophy of the resistance. The infiltration of al-Qassam into the occupied territories by land, sea, and air was a clear sign of a change in the strategy of the resistance to continue the active struggle against the aggressive expansionism and aggression of the Zionist Israeli government. In this context, the study tries to frame Operation al-Aqsa Flood and analyze the dimensions of the rupture. Besides this, it will also outline the possible impact of the operation on global and regional politics, considering that the ongoing process will change the political balance in the Middle East.*

Keywords: *Al-Aqsa flood, Gaza, Hamas, Palestinian-Israeli conflict.*

رؤيـــة تركيـــة
2024-(1/13)
21 - 34

DOI:10.36360/1560-013-001-003

المدخل:

قدّم فواز جرجس، الباحث البارز في مجال دراسات الشرق الأوسط، وجهة نظر جديدة حول الانتفاضات العربية في مقدمة كتابه المحرّر عام 2014 بعنوان "الشرق الأوسط: الاحتجاج والثورة في العالم العربي". وفي إشارة إلى الانتفاضات، يقول جرجس: "حدث تمزّق نفسي ومعرفي في الشرق الأوسط العربي هزّ النظام الاستبدادي من أساسه، وأدخل لغة جديدة وعصرًا جديدًا من السياسات والثورات المثيرة للجدل". تزامن عام 2014 مع خمود الثورات الشعبية في العالم العربي، باستثناء تونس، وعودة الوضع الاستبدادي الراهن في مصر، وانزلاق ليبيا واليمن في أزمات كبيرة. وعلى الرغم من هذه المؤشرات السلبية، فإن تصوير العملية على أنها "تمزّق نفسي ومعرفي" ارتبط بشكل مباشر بالدافع التحرري للثورة الذي سيبقى إرثًا للسنوات المقبلة.

ولن يكون من المبالغة القول: إن عملية طوفان الأقصى كان لها تأثير مماثل في العالم العربي فيما يتعلق بالسياسة الإقليمية والعالمية. ويشكل تسلّل عناصر المقاومة الخاضعة للحصار في منطقة طويلة منذ سنوات، برًّا وبحرًا وجوًّا إلى الأراضي التي تحتلها «إسرائيل»، علامة فارقة في مسيرة النضال الفلسطيني ضد الاحتلال الصهيوني. وهكذا تشكل العملية التي أطلقتها كتائب عز الدين القسام، الجناح العسكري لحركة حماس، صباح 7 أكتوبر، نقلة نوعية في المقاومة الفلسطينية وعهدًا جديدًا. ومن ناحية أخرى فإن الانكسار الأخير في تاريخ الشرق الأوسط الحديث نتيجة عملية طوفان الأقصى يبين بوضوح أن هذه العملية من شأنها أن تغيّر التوازن السياسي في المنطقة. وفي هذا السياق تحاول الدراسة تأطير العملية، وتحليل أبعاد الانكسارات التي نجمت عنها. كما أنها توضح التأثيرات المحتملة للعملية في السياسة الإقليمية والعالمية.

تأطير عملية طوفان الأقصى: تمزق نفسي ومعرفي

شكّلت عملية طوفان الأقصى نقطة تحوّل مهمّة في النضال الفلسطيني، حيث شكّلت التغيير الأكثر جوهرية في فلسفة المقاومة منذ الانتفاضة الأولى (1987). الفلسطينيون الذين اعتقدوا عقودًا عديدة أنهم سينهون الاحتلال ويقيمون دولة مستقلة بفضل دعم العالم العربي، أدركوا بحلول منتصف السبعينيات أن العرب لن يتخذوا الخطوات اللازمة في هذا الصدد. أدركت قيادة المقاومة الفلسطينية أن الطريق الوحيد للتقدم يعتمد على مبادرتها وإرادتها، فأطلقت انتفاضة ضخمة ضد «إسرائيل» بقوة شعبها. ولذلك، أدت الانتفاضة الأولى إلى تحول كبير في نموذج المقاومة الفلسطينية. وبدلاً من انتظار تحرك من المجتمع الدولي أو العالم العربي، فإن النضال المحلي ضد النظام الصهيوني

المحتل، ولو بوسائل محدودة، يمكن أن يمكّن فلسطين من تحقيق مكاسب نحو الاستقلال. كما سمحت هذه الإستراتيجية الجديدة للمقاومة الفلسطينية بإسباغ الطابع المؤسسي وبناء هوية قوية. علاوة على ذلك، فإن تأسيس حركة المقاومة الإسلامية (حماس) في بداية الانتفاضة الأولى[1] كان بمثابة إشارة إلى أنه لن يحدث في المقاومة الفلسطينية تحوّل منهجيّ فحسب، بل أيديولوجي أيضًا. وفي واقع الأمر، في السنوات التالية، أدى تصور حماس للنظام السياسي والأساليب التي استخدمتها والخطاب الذي أنتجته وموقفها الواضح ضد الاحتلال الإسرائيلي، إلى إيجاد استجابة لهذه الحركة في جميع أنحاء فلسطين، وأصبحت واحدة من أقوى الجهات الفاعلة في الحياة السياسية الفلسطينية[2].

إن إستراتيجية حماس الحازمة على مر السنين، والخبرة القتالية لكتائب عز الدين القسام، سمحت بإطلاق عملية ضد «إسرائيل» من غزة. شكّلت العملية، التي بدأت صباح 7 أكتوبر، نقلة نوعية في أعقاب الانتفاضة الأولى. وتحولت عناصر المقاومة في غزة، بقيادة كتائب القسام، من نموذج المقاومة الدفاعي ضد الهجمات الإسرائيلية إلى إستراتيجية هجومية تقوم على التسلل متعدد الجوانب. بالإضافة إلى ذلك، كان إنشاء «مركز عمليات مشتركة» يضم 12 مجموعة مقاومة مختلفة للقتال ضد قوات الاحتلال بطريقة منسقة أمرًا جديرًا بالملاحظة أيضًا في توحيد جميع الفصائل الفلسطينية ضد العدو المشترك[3]. وبينما أضاف كلا التطورين بعدًا جديدًا للمقاومة الفلسطينية، فإنهما أدّيا أيضًا إلى قطيعة نفسية ومعرفية في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي.

وبينما أحدثت الساعات الأولى من عملية طوفان الأقصى موجات صادمة في الجانب الإسرائيلي، ظهرت أيضًا أولى علامات التمزق النفسي. فدولة «إسرائيل» كانت قد عملت سنوات طويلة على خلق أسطورة مقنعة حول قدرة وحداتها الاستخباراتية وكفاءتها. وتقويض الاعتقاد العام بأن أي عمل يشكل تهديدًا لـ«إسرائيل» من داخل فلسطين أو خارجها سيجري الكشف عنه مسبقًا، واتخاذ «إسرائيل» التدابير اللازمة؛ كان بمثابة المحطة الأولى من التمزق النفسي الذي بدأ في السابع من أكتوبر. وأخفقت المخابرات الإسرائيلية في رصد العملية التي نفذتها كتائب عز الدين القسام بالتنسيق مع فصائل مقاومة أخرى، وهذا يشير إلى وجود مشكلة كبيرة. وتشير تصريحات الجهات الرسمية والتحليلات على مختلف المنصات إلى أن حماس تلاعبت بالمخابرات الإسرائيلية[4]. وكشفت التصريحات اللاحقة أن حماس نفذت إستراتيجيات مختلفة لتضليل الجانب الإسرائيلي من خلال الإيحاء بأن العملية مخطط لها من أجل وقت لاحق. وفي الحقيقة طورت حماس نفسها بشكل جدّي في مجال الاستخبارات السيبرانية في السنوات

الأخيرة، وتمكنت من الوصول إلى العديد من الوثائق السرية التابعة لـ «إسرائيل»، تشكّل علامات أساسية من حيث فهم الضغط الذي تمارسه حماس بقواتها على دولة الاحتلال.

إلى جانب إخفاق الأسطورة الاستخباراتية القوية بعد العملية، انهارت أسطورة أخرى تتعلق بنظام الدفاع الجوي «القبة الحديدية». أخفقت القبة الحديدية التي يُنظَر إليها على نطاق واسع على أنها واحدة من أقوى أنظمة الدفاع الجوي في العالم، في الدفاع بشكل كامل عن «إسرائيل»، ولم تتمكن من اعتراض آلاف صواريخ كتائب عز الدين القسام. وهذا يعني أن النقاط البعيدة عن غزة أصبحت مهددة ولم تعد آمنة من قبل المقاومة. وتسبب إخفاق النظام الذي بنته في إلحاق أضرار أكبر من أي وقت مضى بأجهزة الدولة والمجتمع في «إسرائيل». إضافة إلى ذلك، فإن تحييد عدد كبير من ضباط الجيش، وأسر مئات الأسرى في الساعات الأولى من العملية، يظهر كيف أدت عملية طوفان الأقصى إلى تفكيك أجهزة الأمن الإسرائيلية.

كبّدت المقاومة الفلسطينية «إسرائيل» خسائر كبيرةٍ لأول مرة، وتعرضت لدمارٍ نفسيٍّ كبير انعكس على شكل مستوى كبير من العدوان لم يسبق له مثيل في ماضيها. إنّ سياسة العدوان غير المسبوقة التي ينتهجها صناع القرار الإسرائيليون ضد غزة، والذين شعروا لأول مرة بالخوف العميق من الهزيمة، تنبع من اللاعقلانية التي يسببها هذا الخوف. الدمار النفسي الذي واجهته «إسرائيل» بعملية حماس كان يعني أيضًا مكسبًا نفسيًّا للمقاومة الفلسطينية. والتغيير الذي طرأ على إستراتيجية حماس وغيرها من الجماعات في السابع من أكتوبر، وانتقالها من موقفٍ دفاعيٍّ أو إستراتيجية مقاومة شبه نشطة، يمكن عدّهما العنصر المركزي في هذا التمزق النفسي. وفي هذا الصدد، تُعَدّ عملية طوفان الأقصى بمثابة قطيعة كاملة في تاريخ المقاومة الفلسطينية، سواء من ناحية كونها تمثل التحول الأكثر أهميةً في الطابع الأساسي للمقاومة بعد الانتفاضة الأولى، أم من حيث إظهار ما يمكن أن تقوم به المقاومة الفلسطينية رغم محدودية إمكانياتها. وهذه العملية، التي نفذتها المقاومة الفلسطينية بإرادتها، ضرورية أيضًا لتغيير المفاهيم حول الذاتية الفلسطينية. والتعبير عن ذاتية جديدة وفريدة من نوعها من خلال العملية يمثل تحدّيًا قويًّا للعلاقة غير المتكافئة بين فلسطين و«إسرائيل» التي جرى بناؤها في السنوات الماضية.

أدى الطابع المهيمن لـ«إسرائيل» على الساحة الدولية إلى علاقة غير متكافئة في العمليات كافة. على الرغم من أن مفاوضات أوسلو واتفاق أوسلو بين الجانبين الإسرائيلي والفلسطيني جرى تصويرهما من قبل الكثيرين على أنهما خطوة أساسية نحو السلام، فإنهما عمّقا أيضًا العلاقة غير المتوازنة بين الجانبين. وفي هذه المفاوضات

التي جرت ذاتيًّا في الجانب الإسرائيلي وموضوعيًّا في الجانب الفلسطيني، برز وضع يتجاهل حق الفلسطينيين في السيادة الكاملة[5]. وفي هذه العملية، التي تجاهلت القضايا الفلسطينية الحيوية مثل وضع القدس الشرقية عاصمة لدولة فلسطين وعودة اللاجئين، تصورت «إسرائيل» هيكل حكم ذاتي غامض للجانب الفلسطيني بدلاً من دولة مستقلة[6]. وفي السنوات التي تلت ذلك، كانت قدرة «إسرائيل» على التصرف في الأراضي المحتلة كما تشاء، وهجماتها المدمرة على غزة بشكل خاص، سببًا في هيمنة اليأس على الفلسطينيين إلى حد ما. لهذا السبب، كانت عملية طوفان الأقصى نقطة البداية لكسر نفسي سيترك إرثًا جديدًا من المقاومة لسنوات قادمة على صعيد الوصول إلى مستوى جديد من المقاومة، وإثبات أن الأشخاص الذين يعيشون تحت الحصار منذ سنوات لا يزال بإمكانهم القيام بعملية متعددة الأبعاد والجبهات.

> **استعادت حماس والمقاومة الفلسطينية التفوق في الخطاب بالتزامن مع اشتداد اللهجة الناقدة للمقاومة بالتوازي مع شدة الهجمات على غزة ومحاولة وزير الدفاع الإسرائيلي شيطنة المقاومة**

شكّلت عملية 7 أكتوبر الصدع الكبير الثاني في تاريخ الصراع الفلسطيني الإسرائيلي ومقاومة الاحتلال في السياق المعرفي. فـ «إسرائيل» بإستراتيجيتها الاحتلالية التوسعية التي تنفذها من خلال قوتها العسكرية، لم تتمتع بالتفوق المادي على الأرض فحسب، بل كانت تتمتع أيضًا بالتفوق الخطابي على الساحة الدولية. والدعم الذي قدمته الدول الغربية وفي مقدمتها الولايات المتحدة لـ«إسرائيل»، مكّن من إنتاج هذا الخطاب ووفر الشرعية. وفي هذا الإطار، حاولت الجهات الرسمية في الدول الغربية إسباغ الشرعية على جميع أعمال «إسرائيل» غير القانونية بطريقة أو بأخرى. وفي محاولتها ممارسة دبلوماسية عامة فعالة على الساحة الدولية، كانت «إسرائيل» إلى حد ما، تخفي جرائمها عن عيون العالم أجمع من خلال الهاسبرا[7] للتغطية على جرائمها[8].ومع ذلك، فإن الموقف غير العقلاني الناجم عن الخوف الذي واجهته «إسرائيل» بعد 7 أكتوبر خلال عملية طوفان الأقصى أدى إلى خسارة «إسرائيل» تفوقها الخطابي، وتعرضت دبلوماسيتها العامة لانهيار خطير.

استعادت حماس والمقاومة الفلسطينية التفوق في الخطاب، بالتزامن مع اشتداد اللهجة الناقدة للمقاومة بالتوازي مع شدة الهجمات على غزة. وحاول وزير الدفاع الإسرائيلي يوآف غالانت شيطنة المقاومة في غزة قائلاً: «نحن نقاتل ضد حيوانات بشرية»[9]. يمكن تفسير تصريح وزير الدفاع على أنه محاولة لتأمين دعم «العرق الغربي المتفوق» من خلال الإشارة إلى لغة استعمارية تقليدية تجد «إسرائيل» صعوبة في إنتاجها. كتب روديارد كيبلينغ، المشهور في الأدب الإنكليزي، قصيدة للجيش الأمريكي

الذي غزا الفلبين عام 1899، أشار فيها إلى مهمة الرجل الأبيض المقدسة، ووصف المجتمعات غير الغربية بأنها «نصف طفل ونصف شيطان». التشابه بين وصف كيبلينغ وغالانت للفئة المهمشة، رغم وجود فجوة زمنية تزيد على 130 عامًا، يكشف أن قادة الصهاينة الإسرائيليين نسوا تمامًا فهمهم للإنسانية تحت وطأة فقدان التفوق في 7 أكتوبر.

يمكن وصف الإستراتيجية الدولية الناجحة التي اتبعتها «إسرائيل» في سياسة الاحتلال حتى الآن بأنها سياسة تبليد الإحساس. فالعنف المفرط والمجازر التي ارتكبتها «إسرائيل» أديا إلى بلادة الحساسية الدولية، وعدّهما المجتمع الدولي أمرًا طبيعيًّا، ومنح «إسرائيل» مجالاً واسعًا للمناورة. بالمقابل فقدت «إسرائيل» تفوقها في الخطاب الدولي، وواجهت احتجاجات أكبر من أي وقت مضى في جميع أنحاء العالم، وإلى جانب الأضرار العسكرية والسياسية والاقتصادية التي سببها 7 أكتوبر، بدأت الرسالة التي وجهتها الجماهير المتضامنة مع غزة ضد الممارسات اللاإنسانية للنظام الصهيوني تتحول إلى كابوس يقض مضجع «إسرائيل»، وبدأت الاحتجاجات الحاشدة والتطورات في المجال الدبلوماسي وتصاعد معاداة الصهيونية في الساحة الدولية يشيران إلى أن العملية في غزة ستثقل كاهل «إسرائيل» بمزيد من التكاليف.

وفي هذه العملية، تواصل المقاومة في غزّة إلحاق خسائر فادحة بقوات الاحتلال ببنيتها الحازمة المنسّقة. ومن ناحية أخرى، فإن أبناء غزة جميعًا يقدمون دروسًا عظيمة للعالم بإصرارهم وصبرهم وإيمانهم المطلق بالنصر. والصور التي ظهرت خلال عملية تبادل الرهائن والرسائل التي أرسلها الرهائن الإسرائيليون فتحتا مساحة كبيرة لشرعية حماس والمقاومة في غزة، وبددت بالمقابل حجج «إسرائيل» المتلاعبة المزعومة. كل هذه المؤشرات تثبت مرة أخرى أن عملية طوفان الأقصى كانت نقطة تحول مهمة في النضال الفلسطيني ضد الاحتلال. إضافة إلى ذلك، فإن السابع من أكتوبر هو المصدر الأساسي للتحفيز الذي فتح الباب أمام حقبة جديدة في المقاومة الفلسطينية، ولحظة تاريخية فاصلة ستظهر انعكاساتها في السياسة الإقليمية والعالمية.

هل تبشر عملية طوفان الأقصى بتحول تنظيمي في بنية الشرق الأوسط؟

في العقود القليلة الماضية، ظهرت أدبيات واسعة النطاق حول الدور المتزايد للدين في العلاقات الدولية. والتحول من المجال العلماني إلى وضع يجري فيه تحديد السياسات والإستراتيجيات على محور «المقدّس»- واضح في خطاب وتصرفات بعض الدول. وفي هذا الصدد، يشير الوضع الذي نشأ في أعقاب عملية طوفان الأقصى إلى

أن تأثير السياسة الدينية في سياسات الشرق الأوسط سيكون محسوسًا بشكل أكبر في السنوات المقبلة.

ففي خطابه الذي ألقاه مساء يوم 25 أكتوبر 2023، لم يقم رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو بشيطنة حماس فحسب، بل استخدم أيضًا الخطاب الديني لإسباغ الشرعية على نفسه من أجل تخفيف رد فعل المواطنين الإسرائيليين ضد الحكومة. والجزء الأكثر أهمية في الخطاب هو تأكيد نتنياهو القوة الجماعية والإيمان العميق للمجتمع الإسرائيلي، وأنه قادر على تدمير حماس وتحقيق نبوءة إشعياء. ونقلاً عن سفر إشعياء، قال نتنياهو: "لَا يُسْمَعُ بَعْدُ ظُلْمٌ فِي أَرْضِكِ، وَلَا خَرَابٌ أَوْ سَحْقٌ فِي تُخُومِكِ، بَلْ تُسَمِّينَ أَسْوَارَكِ: خَلَاصًا، وَأَبْوَابَكِ: تَسْبِيحًا»[10].

الخطاب الديني الذي استخدمه رجال الدولة الإسرائيليون بعد 7 أكتوبر يشكل الدليل الأكثر أهمية على أن الصهيونية تهدف إلى تحقيق أهدافها السياسية. لكن ما يشكل خطورة

على توازن السياسة الإقليمية والعالمية هو تأييد المرجعيات الدينية للقادة الإسرائيليين من قبل القوى الغربية الرئيسة، وبخاصة الولايات المتحدة. فهذا وزير الخارجية الأمريكي أنطوني بلينكن خلال زيارته إلى تل أبيب في 12 أكتوبر، سعى صراحة إلى إسباغ الشرعية على النظام السياسي الصهيوني، قائلاً: «أنا أقف أمامكم ليس بصفتي وزير خارجية الولايات المتحدة فقط، بل بصفتي يهوديًّا أيضًا «[11]. بهذه الطريقة، تعمل الدول الغربية على تشجيع القادة الإسرائيليين، ودعم «الخطاب المتطرف والصهيوني المروع» لحكومة نتنياهو[12].

والتطورات الحالية تبين بوضوح أن عملية طوفان الأقصى سوف تسرع من صعود الخطابات الدينية في السياسة العالمية. وكذلك، تثبت ديناميكيات ما بعد 7 أكتوبر أن الجهات الفاعلة الدولية تحاول بجدية تغيير توازن القوى في الشرق الأوسط أو الحفاظ عليه. ترتبط السفن الحربية التي أرسلتها الولايات المتحدة والمملكة المتحدة إلى البحر الأبيض المتوسط لدعم «حق «إسرائيل» في الدفاع عن النفس»- بالعمل على الحفاظ على الوضع الراهن في المنطقة. وعلى نحو مماثل، يشير دعم روسيا والصين لفلسطين إلى أن المناخ السياسي في مرحلة ما بعد طوفان الأقصى سوف يفتح الباب أمام تحول شامل في المنطقة. وعلى وجه الخصوص، فإن موقف روسيا في سوريا وليبيا، ونفوذ الصين المتزايد في منطقة الخليج في السنوات الأخيرة، ودورها وسيطًا في التطبيع بين المملكة العربية السعودية وإيران، كل ذلك نذير بتطورات جديدة في المنطقة. وفي هذا السياق، ينبغي عدّ عملية طوفان الأقصى نقطة تحوّل لن تؤثر في السياسة الفلسطينية والإسرائيلية فحسب، بل ستجبر القوى العالمية أيضًا على تحديد إستراتيجيات جديدة في الشرق الأوسط.

ولن يقتصر الأمر على الجهات الفاعلة العالمية، بل سيمتد أيضًا إلى السياسات التي ستتبعها دول المنطقة، وستتطور إلى بعد جديد بعد 7 أكتوبر، خصوصًا بعد تعرض عملية التطبيع مع «إسرائيل» الجارية بموجب الاتفاق الإبراهيمي منذ عام 2020، لضربة كبيرة بعد عملية طوفان الأقصى. وكان التطبيع مع «إسرائيل» قد فرض على المجتمع في العديد من الدول العربية في ظل غياب الموافقة المجتمعية الكافية، بمبادرة من حكوماتها، وبسبب طابع أنظمتها السائدة. لكن الإبادة الجماعية التي ارتكبتها «إسرائيل» في غزة، ونظرتها الأكثر طموحًا بشأن «أرض الميعاد» من خلال ذرائعها الدينية- أدتا إلى اشتعال الغضب من جديد ضد «إسرائيل» في المجتمعات العربية. وفي هذا السياق، تحتاج دول الشرق الأوسط إلى إعادة النظر في معايير علاقاتها مع «إسرائيل» مقارنة بما كانت عليه قبل 7 أكتوبر.

منذ انطلاق العملية، تمكنت قطر ومصر من تعزيز مكانتهما في العالم العربي من خلال مهمتهما نحو الحل. وعاد الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي بحضور أكبر في السياسة الخارجية التقليدية لمصر فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، متبعًا إستراتيجية نشطة لا تخيف العالم الغربي أو شعبه. وأثبتت قطر للعالم من جديد أنها ستكون دائمًا جهة فاعلة على الطاولة بشأن القضية الفلسطينية، من خلال مبادراتها بشأن تبادل الرهائن والعمل على إرساء وقف دائم لإطلاق النار. وهذا الوضع يشير إلى رغبة قطر في القيام بدور نشط في العملية في جميع السيناريوهات المستقبلية المحتملة المتعلقة بفلسطين.

إن الدعم السياسي والدبلوماسي والخطابي الذي تقدمه تركيا وهي تتابع عن كثب التطورات في فلسطين وتدافع دائمًا عن حقوق الفلسطينيين، على أعلى مستوى بعد عملية طوفان الأقصى- يتبوّأ مكانة مهمة في السياسة الإقليمية والعالمية. وقد بذل الرئيس رجب طيب أردوغان ووزير الخارجية حاقان فيدان، اللذان قاما بحركة دبلوماسية نشطة للغاية ضد العدوان الإسرائيلي منذ البداية، جهودًا كبيرة لإنهاء المجازر ومحاكمة «إسرائيل» دوليًّا. وفي كلمته التي ألقاها في اجتماع المجموعة في مجلس الأمة التركي الكبير في 25 أكتوبر، قدم الرئيس أردوغان إجابة واضحة لأولئك الذين يربطون حماس بالإرهاب بقوله: «إن حماس ليست منظمة إرهابية، بل مجموعة تحرير، ومجموعة من المجاهدين الذين يكافحون من أجل حماية أراضيهم ومواطنيهم»[13]. إن السياسة التي ستتبعها تركيا في أعقاب عملية طوفان الأقصى ستوفر لأنقرة ميزة كبيرة في إعادة تشكيل توازن القوى في الشرق الأوسط. وسوف يسمح لها بالتأثير في الديناميكيات الناشئة في المنطقة، وبخاصة النضال الفلسطيني.

هناك قضية حاسمة أخرى يجب معالجتها في سياق عملية 7 أكتوبر، هذه القضية هي النهج الذي اتبعته إيران وحزب الله تجاه خطوة حماس. فمن المعلوم أن إيران وحزب الله دعما العملية منذ البداية. لكن الواضح لمن يقرأ ما بين السطور، أن هذا القرار الذي اتخذته حماس بمحض إرادتها سبب انزعاجًا نسبيًّا لإيران وحزب الله. فعلى سبيل المثال، بيّن الأمين العام لحزب الله، حسن نصر الله، في خطاب ألقاه يوم 3 نوفمبر 2023م، أن حماس نفذت هذه العملية بقرارها الخاص بسرية تامة، ومن دون إبلاغها، «لكن هذا الإخفاء لم يزعج أحدًا في حركات المقاومة ومحور المقاومة على الإطلاق»[14]. وهكذا نجد أن مضمون الخطاب الذي استمع إليه العالم وهم يتوقعون أن يدلي نصر الله بتصريحات قاسية وواضحة بأنه سينحاز إلى طرف في الحرب، لم يكن أكثر من محاولة حزب الله الحفاظ على وضعه الراهن في المنطقة. وعلى الرغم من استمرار الاشتباكات على نطاق منخفض بين حزب الله و«إسرائيل» منذ بدء عملية طوفان

الأقصى، فإن ذلك يحدث في إطار قواعد الاشتباك التي جرى وضعها بعد حرب يوليو 2006 بين الجانبين. ومع ذلك، فإن قدرة حزب الله على أداء دور أكثر نشاطًا في العملية هي أحد العوامل الرئيسة التي ستسرع من تغيير المعادلة السياسية في المنطقة.

تسعى إيران منذ سنوات عديدة للحصول على موطئ قدم في العالم الإسلامي والكتلة المناهضة للغرب من خلال خطابها المناهض لـ«إسرائيل» و«محور المقاومة». وفي أعقاب اندلاع الانتفاضات الشعبية في سوريا، أدى دعم طهران لبشار الأسد ونظامه إلى الإضرار بشكل خطير بسمعة إيران في العالم السني. وتفضيل حماس عدم الوقوف إلى جانب النظام خلال الانتفاضات في سوريا وصل إلى حد أن إيران اتهمت حماس بخيانة المقاومة[15]. وعلى إثر هذه التطورات، سعت إيران الراغبة في تعزيز مكانتها في المنطقة، إلى إعادة علاقات وثيقة مع حماس بعد عام 2014، وقرر الجانبان إخراج القضية السورية من العلاقات الثنائية. ولا ينبغي التغاضي عن أن إيران أدّت دورًا مهمًّا في زيادة القدرة العسكرية لحماس. ورغم أن إيران اتّخذت موقفًا واضحًا ضد «إسرائيل» في هذه العملية، فإن الملاحظ أيضًا أن إيران تخشى اندلاع أزمة كبيرة في المنطقة. ومن ناحية أخرى، كان حزب الله مترددًا في اتخاذ موقف أكثر نشاطًا ضد «إسرائيل»، وستكشف الأيام إن كانت هذه الإستراتيجية تتماشى مع توجيهات إيران أم ضدها، ولكن، بعيدًا عن المجتمعات العربية والعالم الإسلامي، تشكل عملية طوفان الأقصى اختبارًا قاسيًا للعالم الشيعي الذي ينفّذ خطاب «محور المقاومة». وبالنظر إلى الهجمات الأخيرة التي شنها الحوثيون في اليمن ضد السفن الإسرائيلية في البحر الأحمر، يتبين أن إيران ووكلاءها قد دخلوا في عملية جديدة في السياسة الإقليمية.

الخاتمة:

إن عملية طوفان الأقصى التي قادتها كتائب عز الدين القسام مع عناصر مقاومة أخرى في غزة، اتخذت مكانها في التاريخ بوصفها نقطة تحول نموذجية في النضال الفلسطيني ضد الاحتلال، مثل الانتفاضة الأولى. ويمكن عدّ تدمير الأسطورة الأمنية الإسرائيلية وانتقال التفوق الخطابي لمصلحة فلسطين نتائج مباشرة للتمزق النفسي والمعرفي الذي أحدثته عملية 7 أكتوبر. وبالمثل، فإن حقيقة تنظيم الاحتجاجات الحاسمة والواسعة النطاق في جميع أنحاء العالم تشير إلى أن «إسرائيل» فقدت شرعيتها بشكل خطير على الساحة الدولية. ورغم أن الدول الغربية تحاول تطبيع السياسات العدوانية والمجازر التي ترتكبها حكومة نتنياهو الصهيونية، فمن الواضح أن مجتمعاتها لا تقبل هذا الوضع.

وانطلاق عملية طوفان الأقصى أطلقت فعليًّا العملية القادرة على إحداث تحول جذري في سياسة الشرق الأوسط. والسياسات الفلسطينية والإسرائيلية التي تنتهجها الجهات الفاعلة العالمية والإقليمية ستؤثر بشكل خطير في التوازن السياسي في المنطقة. علاوة على ذلك، فإن هذه العملية، التي تُستخدَم فيها المرجعيات الدينية أكثر من الماضي، تعني أن المقاربات الأخروية للديانات الإبراهيمية سيكون لها مكانة أكثر أهمية في المعادلة السياسية المستقبلية للشرق الأوسط. والمتوقع المرتقب أن تؤدي عملية ما بعد 7 أكتوبر إلى تسريع التحول من المرحلة الجيوسياسية إلى المرحلة الثيوقراطية السياسية، حيث شوهدت علاماته منذ فترة طويلة في الشرق الأوسط. وفي الختام، كانت عملية طوفان الأقصى حدثًا مهمًّا كسر العديد من القواعد في سياسة الشرق الأوسط، وإشارة إلى تغيير منهجي في المنطقة، ويمكن القول: إن نتائج العملية في الفترة المقبلة ستشكل إلى حدّ كبير سياسة المنطقة.

الهوامش والمراجع:

1. لمزيد من التفصيلات حول العملية التأسيسية لحماس وخطابها ونشاطاتها السابقة، انظر: خالد حروب، حماس، دليل المبتدئين، (لندن، مطبعة بلوتو، 2006).

2. Muhammed Hüseyin Mercan, "The Political Strategy of Hamas in the Context of Continuity and Change," Middle Eastern Studies, Vol. 10, No. 1 (June 2018), pp. 62-78.

3. سامح عودة، «ليست القسام وحدها .. تعرف على أبرز فصائل المقاومة في فلسطين»، الجزيرة، (27 نوفمبر 2023)، https://www.aljazeera.net/midan/reality/politics/2023/11/27/ليست-القسام-وحدها-تعرف-على-أبرز-فصائل-المقاومة-في-فلسطين.

4. Emily Harding, "How Could Israeli Intelligence Miss the Hamas Invasion Plans?" Center for Strategic and International Studies, (October 11, 2023), retrieved from https://www.csis.org/analysis/how-could-israeli-intelligence-miss-hamas-invasion-plans; Samia Nakhoul and Jonathan Saul, "How Hamas Duped Israel as It Planned Devastating Attack," Reuters, (October 10, 2023), retrieved from https://www.reuters.com/world/middle-east/how-israel-was-duped-hamas-planned-devastating-assault-2023-10-08/;
محمد وتد، «طوفان الأقصى .. إخفاق تراكمي للجيش والاستخبارات الإسرائيليين»، الجزيرة، (18 أكتوبر 2023)؛ https://www.aljazeera.net/politics/2023/10/18/تفاصيل-إخفاق-الاستخبارات.

5. Gilbert Achcar, The Boiling Middle East, translated by Rida Simsekel, (İstanbul: Ithaki, 2004), p. 273.

6. بردال آرال، من الأمن العالمي إلى الهيمنة العالمية: نظام الأمن التابع للأمم المتحدة والعالم الإسلامي، (إسطنبول: منشورات كرة، 2016)، ص 151.

7. هاسبرا تعني: «الشرح أو التفسير» باللغة العبرية. وتُستخدَم للإشارة إلى دبلوماسية عامة تقوم بها «إسرائيل» للتأثير في مواطنيها ومؤيديها لإسباغ الشرعية على سياسات الحكومة الصهيونية وأهدافها عبر وسائل الإعلام والترويج.

8. "The Art of Deception: How Israel Uses 'Hasbara' to Whitewash Its Crimes," TRT World, (2020), retrieved from https://www.trtworld.com/magazine/the-art-of-deception-how-israel-uses-hasbara-to-whitewash-its-crimes-46775.

9. "Israeli Defence Minister Orders 'Complete Siege' on Gaza," Al Jazeera, (October 9, 2023), retrieved December 4, 2023, from https://www.aljazeera.com/program/newsfeed/2023/10/9/israeli-defence-minister-orders-complete-siege-on-gaza.

10. "Statement by PM Netanyahu," Israel Prime Minister's Office, (October 25, 2023), retrieved from https://www.gov.il/en/departments/news/spoke-statement251023.

11. "'I Come before You as a Jew,' Blinken Tells Israel after Hamas Attack," The Jerusalem Post, (October 12, 2023), retrieved December 5, 2023, from https://www.jpost.com/israel-news/article-767997.

12. Burhanettin Duran, "Rise of theo-Politics: Crusade-Crescent Clash and Isaiah's Prophecy," Daily Sabah, (October 27, 2023), retrieved from https://www.dailysabah.com/opinion/columns/rise-of-theo-politics-crusade-crescent-clash-and-isaiahs-prophecy.

13. الرئيس أردوغان: أيّ استعراض سياسي لن يؤدي إلى تحقيق السلام.
"Cumhurbaşkanı Erdoğan: Yapılan Hiçbir Siyasi Şov Barış Getirmeyecektir," TRT Haber, (October 25, 2023), retrieved from https://www.trthaber.com/haber/gundem/cumhurbaskani-erdogan-yapilan-hicbir-siyasi-sov-baris-getirmeyecektir-806767.html.

14. «نص كلمة السيد نصر الله خلال الاحتفال التكريمي للشهداء الذين ارتقوا على طريق القدس»، المنار، (3 نوفمبر 2023)؛ https://www.almanar.com.lb/11185165.

15. محمد غازي الجمل، «من الانتفاضة الأولى إلى سيف القدس.. لماذا تدعم إيران حركة حماس؟»، الجزيرة، (30 مايو 2021)؛
https://www.aljazeera.net/midan/reality/politics/2021/5/30/مصالح-مشتركة-وأهداف-متباينة-كيف-نفهم-2-

SETA BOOKS

تنظيـم غـولـن
والمحاولـة الانقلابية

رمضـــــان يلـــدرم

setavakfi setav setavakfi
www.setav.org • kitap@setav.org
+90 (212) 395 11 00

SETA